Terry Eagleton

Culture and the Death of God

(London: Yale University Press, 2014). 248 pp.

الثقافة وموت الإله

فيصل درّاج(*)

ناقد أدبي.

ـ ١ ـ

لا يقرأ تيري إيغلتون، الناقد الأدبي الإنكليزي الشهير، في كتابه **الثقافة وموت الإله**، موضوع الدين في ذاته، بل التحولات الاجتماعية التي قادت إلى «تراجع الدين» في عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وعودته مجدداً في مطلع القرن الحادي والعشرين. استطاعَ الدين، بالرغم من دعوات العقلانية والعلمانية والإلحاد، أن يحافظ على مواقعه، بأشكال مختلفة، صامتة وأقرب إلى الانحسار في زمن، وصاخبة وعالية الصوت في أحيان أخرى. ذلك أن الدين لا «يزول» بل يتغيّر شكل حضوره الاجتماعي. يضيء مؤلف الكتاب هذا الوضع قائلاً: «لم تصبح المجتمعات علمانية حينما تخلّت عن الدين بأجمعه، ولكن حين فقد الدين قدرته على تحريكها» (ص ١)، الأمر الذي يعني أن المجتمعات تصبح علمانية وتحتفظ بشكل من الإيمان الديني، وقد تتسع مساحة الحضور الديني فيها من دون أن تفقد علمانيتها. ولهذا يميّز بين الدين والإيمان، إذ الأول جملة معتقدات فكرية ـ تطبيقية أقرب إلى الجمود، بينما الثاني ظاهرة انفعالية روحية، ترتبط بالأفراد أكثر مما تستدعي الجماعات، وتأخذ لدى الأفراد حالات مختلفة.

لا ينفصل وضع الإيمان الديني، بعامة، عن شرطه الاجتماعي ـ التاريخي. ولهذا بدا الدين، في زمن صعود العلمانية مسألةً خاصة لا تمسّ الفضاء العام، بينما عاد بأشكال مختلفة إلى الفضاء الاجتماعي العام في زمن «الحداثة المتأخرة»، أو ما يدعى اليوم بـ: «ما بعد الحداثة، تعبيراً عن أزمة اجتماعية عنوانها فقدان الثقة في التقدّم، وعدم النظر إلى المستقبل باطمئنان كبير. فقد واجه القرن الثامن عشر الإيمان بالعقل، وواجه التصوّر الديني للعالم بتقدّم العلوم. ولم تكن هذه المواجهة، في الحالين، معركة مع الدين من حيث هو، ذلك أنها ارتبطت

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

بالصراع ضدّ الكنيسة، وبذلك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت وباستعمال الدين كأداة للقمع الاجتماعي والسياسي.

لم تكن معركة التنوير الأولى، في القرن الثامن عشر، مع الدين في ذاته، ولم يكن موقف التنويريين من الدين متجانساً، فما أملى هذا الصدام جاءَ من مواضيع تتجاوز الدين ولا ترتبط به بالضرورة. كان التنوير مشغولاً بالعلوم وبقيمة العقل وقضية التقدّم والسلطة الكنَسية، أو كان مشغولاً، بلغة أخرى، باكتشاف الطبيعة الإنسانية وإمكانياتها. ولم يكن يصطدم بالدين إلا إذا تعارضَ مع أهدافه. ولهذا احتفظ التنوير، في كثير من الحالات، بأسس دينية، حال ديكارت الذي برهن وجودَ الله بشكل رياضي، كما لو كان العلم لا يتعارض مع الدين، بل يأتي لنجدته.

وحتى حين كان بعض الفلاسفة يشنّون هجوماً شديداً على المؤسسات الدينية المسيطرة، حافظَ هذا البعض على «فكرة الله»، حال الفيلسوف سبينوزا الذي كان يؤمن بـ «وحدة الوجود»، التي تجعل من الله جسداً للكون كله، أو تجعل من الكون في علائقه المختلفة، تجسيداً للإله. بل إن بعض المشتغلين بقضايا التنوير يرى أن معركة التنوير الجذري، في القرن الثامن عشر، كانت بين القديم والجديد، بين شكل من التصورات لم يعد قادراً على احتضان الجديد وتصورات مغايرة تنشد صياغة مغايرة للفلسفة والسياسة والعلوم والمعتقدات الدينية.

ويرى إيغلتون أن التنوير كان قلقاً في علاقته بقضايا المعتقد والإيمان من دون أن يكون بالضرورة معادياً للدين، إن لم يكن بلغة أخرى «غير متديّن»، يعترف بالظاهرة الدينية ويقرؤها بأدوات غير دينية.

يشار هنا إلى أن كلمة «الإلحاد» لم تدخل إلى اللغات الأوروبية الحديثة إلا في القرن السادس عشر، وفي أحيان كثيرة بعده، ولم يكن لها «صدى إيجابي» دائماً، ذلك أنها كانت احتجاجاً ضدَّ دور الكنيسة في السياسة، وضدَّ دورها التاريخي الطويل في تسويغ أشكال القمع الاجتماعي. ولم يكن الركون إلى مفهوم «الأصل»، الذي أملته الأزمنة الحديثة، إلا ضرورةً للمنهج العقلاني الذي أراد أن يقرأ، عقلانياً، الظواهر في أصولها البعيدة: أصل الدين، وأصل الإنسان، وأصل السلطة، مقترحاً تأويلات تعلي من شأن الإنسان في عصر العلم والقومية والتقدم الاجتماعي... وعلى الرغم من أن بعض «المثقفين التنويريين» كان لا يؤمن بالأديان السماوية (هولباخ، ديدرو، ومونتسيكيو،...)، فقد تعامل مع الدين كظاهرة اجتماعية، لا يمكن فصلها عن السياسة والتربية وتقدّم العلوم،... وبهذا المعنى كان التنوير ثقافة سياسية، وليس مجرّد مجموعة من المقولات الفلسفية، بحثاً عن تجديد ثقافي متعدّد المناحي، واحتفالاً بالفضول المعرفي، الذي يريد أن يكتشف الكون ويحلّ ألغازه.

لم يكن غريباً أن أغلبية المدافعين عن العقل، احتفظوا بأشكال مختلفة من الإيمان، حال عالم الرياضيات الشهير إسحاق نيوتن والفيلسوف جون لوك وكذلك فولتير وجيفرسون،... أراد هؤلاء المصالحة بين العقل والإيمان، أو بلوغ «إيمان طبيعي»، يحتفظ بفكرة الدين ويستبعد المؤسسات

الكنسية. بل إن «التنوير السكوتلاندي» كما يذكر إيغلتون، كان معادياً للإلحاد والمادية. ويستطيع المدافعون عن هذا الاتجاه الاستشهادَ بدور الحركات الدينية في مقاومة الكنيسة والاستغلال والاستبداد، وصولاً إلى «لاهوت التحرير» في أمريكا اللاتينية، الذي ازدهر في النصف الثاني من القرن الماضي، وحاول أن يصالح بين تعاليم السيد المسيح والمبادئ التحررية.

باستثناء الألماني لودفيج فيورباخ، في كتابه **جوهر المسيحية**، فإن التنويريين الأوروبيين، بعامة، لم يعملوا على وضع نظرية تنويرية في الدين، فمقاصدهم لم تكن دينية. كان الفيلسوف الألماني كانْت، على سبيل المثال، وهو داعي التنوير الأكبر، معادياً للدين، ولاحظ فريدريش جاكوبي أن التصوّر التنويري للعقل، له تاريخ خاص به يمتدّ إلى المسيحية، كما أن الفيلسوف المعاصر يورغن هابرماس، قال بأن قيم الحرية والمساواة والعدالة مشتقّة من أخلاق الحب المسيحية. وعلى هذا فإن «هجوم التنويريين على الدين كان في جذوره سياسياً لا قضية لاهوتية» (ص ١٢)؛ أي أنه تمّ من وجهة نظر «الشأن العام»، والمصلحة الاجتماعية.

ويلاحظ أن المدافعين عن التنوير لم يكونوا أساتذة محترفين، بقدر ما كانوا مثقفين من الطبقة الوسطى يربطون بين اجتهادهم النظري والتقدّم الاجتماعي. والأمر ينطبق على بعض «المفكرين الكبار»، حيث حاول جون لوك الذي اعتبر أن العقل، أساساً، صفحة بيضاء، الرد على «الخطيئة الأصلية» التي يقول بها الدين المسيحي، علماً أن لوك كان قريباً من فكرة الدين الطبيعي المرتبط بطبيعة إنسانية عامة.

يحاول إيغلتون قراءة التنوير على أساس نقدي بعيداً عن التبسيط والأحكام الجاهزة. ولهذا يرى أن التنوير لم يقطع نهائياً مع الدين، وأن تقدّم الخطاب التنويري على حساب الخطاب الديني لم يكن لأسباب دينية، بل لاعتبارات اجتماعية لها علاقة بالسياقات التاريخية. وأكثر من ذلك فإن إيغلتون يحاول تبديد بعض المسلمات المنسوبة إلى التنوير بتبسيط كبير، مثل التفاؤل والتبشير والإيمان بحتمية التقدّم، ويذكر أن فولتير كان يرى في التاريخ مساراً متوحشاً، وأن الفيلسوف كانْت كان متشائماً ولا يقلّ تشاؤماً عن شوبنهاور، ولم يكن ديدرو يؤمن بأن الطبيعة الإنسانية قابلة للإصلاح. إذا كان التنوير قد تفوّق، في فترة محددة، على الدين، فهذا يعود إلى عمل التنويريين على الربط بين العقل والحياة. ولهذا لم تعد الدعوات الدينية قوية إلا بعد أن أخفق العقل «التنويري» في الربط بين «الواقع والقيمة» وتوليد الآفاق التي بشّر بها. وهذا الإخفاق سبب «إشكالية الدين القائمة اليوم» (ص ٣٥).

- ٢ -

الدين ظاهرة مستمرّة الحضور بأشكال مختلفة. هذا ما يؤكّده إيغلتون بأساليب متنوّعة ولهذا يستهلّ الفصل الثاني من كتابه قائلاً: «إن تاريخ العصر الحديث هو، بين أشياء أخرى، بحث عن مقام الله. فالعقل والطبيعة والروح والثقافة والفن والرائع والأمة والدولة والعلم والإنسانية والوجود والمجتمع والنظام والرغبة، وقوة الحياة

والعلاقات الشخصية، كل هذه العناصر تقوم بدورها متطلّعة بين حين وآخر إلى السماء» (ص ٤٥). ومع أن العصر الحديث هو عصر الشك، فإن سيطرة الشك عليه لم تلغ الدين بل أعطته صيغاً مختلفة، تتضمّن دين النخبة ودين العوام والدين السلطوي ودين الفلاسفة والفنانين ودين المضطهدين... فقد وجد الناقد الأدبي والفيلسوف فالتر بنيامين في «السريالية» شكلاً من الدين الدنيوي، وانطوت مادية ماركس على أبعاد دينية وهي تتحدّث عن العدل والمساواة ومحاربة الاستغلال.

ولعل تعددية أشكال الوعي الديني هي التي تجعل التعامل بشكل شمولي معه أمراً مستحيلاً، فلا يمكن مقارنة «الدين الفلاحي» بدين الفلاسفة، ولا مقاربة مواقف الفلاسفة أنفسهم من الدين بمعيار وحيد. فالدين يستمرّ وتستمرّ معه أسئلة لا تمكن الإجابة عنها. فالفيلسوف آلان باديو، الأكثر شهرة في عالم اليوم، من القائلين بلا تحفّظ بـ «موت الله»، لكنه لا يستطيع أن يقول شيئاً كثيراً عن سؤال اللانهاية، وهناك آراء الرومانسيين الذين يتحدّثون عن المطلق والذاتية المبدعة، والثورات القائلة بالمدن الفاضلة، وغيرها من الظواهر السياسية والاجتماعية التي لا تقوم إلا بنقل الدين من موقع إلى آخر وتعطيه تأويلات متجددة: «لقد فشل التنوير في أن يحلّ محلّ الإيمان الديني، ولم يستطع المثاليون والرومانسيون أن يقوموا بذلك» (ص ٢٢)، لم ينسحب الدين من الحياة الاجتماعية كلياً في زمن الحداثة الصاعدة، وعاد قوياً في زمن الحداثة المتأخّرة، ولا وجود لثقافة وحيدة قادرة على صياغة وعي أخير، ولا وجود لشكل أخير من الإيمان الديني ولا لشكل أخير لمواقف معادية للدين.

يضيء إيغلتون تعددية الوعي الديني، أو تعددية الموقف منه في الجمل التالية: «لا وجودَ للحياة في أشكال كلية. فالمجتمعات الإنسانية متنوّعة... متباعدة والثقافة تعلن عن الانقسامات الاجتماعية أكثر مما تصالح بينها. وحالما تتسرّب الفروق المتعارضة إلى الثقافة، مثل اللغة والرموز والتراث والهوية، فإن الثقافة لا تبدو حلّاً للمسائل الإنسانية بل جزءاً منها» (ص ١٢٢). والمقصود بذلك أن الوعي الديني شكل من الوعي الثقافي، وأن تعددية أشكال الوعي الثقافي في أساس تعدّدية أشكال الوعي الديني. وإذا كان في التعدّد إعلان عن اللايقين، فإن القول بوعي إيماني موحّد أمر لا معنى له، بقدر ما إن القول بوعي موحد معاد للدين لا معنى له أيضاً.

ولذلك فإن الثقافة، مهما كان شكلها، لا تشكّل حلّاً لأسئلة المجال الديني، فهي تقترح أو تقدّم أدوات نافعة لمعالجة السؤال، من دون أن تضمن شيئاً أخيراً. ربما يتبقى التسامح أو الاعتراف المتبادل، أو الحوار المفتوح، الذي لا يفرض فيه طرف معين إجاباته على طرف آخر، انطلاقاً من الواقع المعيش، الذي يفرض التعاطف والتفهّم والتعاضد،... يشير إيغلتون في الصفحة الأخيرة من كتابه إلى «التضامن مع الفقراء والعاجزين، حيث يمكن أن تولد أشكال جديدة من الإيمان والثقافة والسياسة» (ص ٢٠٨). إن حلّ القضايا الدنيوية سبيل إلى تجاوز الاختلافات الدينية، ذلك أن السؤال الجوهري لا يقوم في الدين، من حيث هو،

بل في العلاقات الاجتماعية التي تطرح سؤال الوعي الديني.

ـ ٣ ـ

يوحي كتاب إيغلتون، بشكل عام، بقضايا ثلاث: كان الدين قائماً قبل الأزمنة الحديثة وبقي قائماً في الأزمنة التي تلتها، كما لو كان في جوهر الإنسان بعدٌ ديني، أو إيمانيّ، طريّ معتدل حيناً، وخشنٌ فظّ في أحيان أخرى، وهناك الخصوصيات الثقافية التي تمتدّ في خصوصيات دينية، طالما أن الحياة الإنسانية لا يمكن اختصارها في شكل وحيد. كان ريموند ويملز يقول: الثقافة طريقة شاملة في الحياة. لكن هذه الحياة، إنسانياً، لا وجود لها بصيغة المفرد، الأمر الذي يوزّع الثقافة إلى ثقافات، ويوزع المعتقد الديني إلى معتقدات. والقضية الثالثة هي السياسة في احتمالاتها المتعددة: أدّى الدين دوراً سياسياً حاسماً في بعض الأزمنة، فسوّغ سلطات كثيرة، ودعمها، بيد أن السياسة أدّت أدواراً في سياقات أخرى، فأسقطت الهيمنة الدينية والأنظمة التي يدعمها، وهو ما عيّن التنوير ثقافة سياسية بامتياز. وعلى هذا فإن صعود التنوير، كما تحوّله إلى أيديولوجيا اجتماعية مهيمنة، ارتبط بخيارات سياسية مقبولة اجتماعياً، بقدر ما إنَّ «تراجع التنوير» واستعادة الدين لدور في الفضاء الاجتماعي لا ينفصل عن ممارسات سياسية معينة. ولعله من العبث الحديث عن «الأصولية الإسلامية» من دون الإشارة إلى أحداث «الحادي عشر من أيلول» الشهيرة، التي أملتها اعتبارات مصلحية سياسية واستولدت، معتقدات دينية متعصبة سياسية الأهداف.

تعرّض إيغلتون إلى قضايا الدين والإيمان والإلحاد والتعصّب والتسامح، التي يعيشها البشر في العالم الراهن، منطلقاً من سؤال متعدّد العناصر: كيف يمكن العيش في عالم غير مؤمن، افتراضياً، مهدد بأصولية دينية؟ عالج السؤال منطلقاً من سياقات اجتماعية ـ تاريخية محددة، ولم يبدد جهده في موضوع «الله» الأبدي في حضوره □